نت الأثري

التَّيْسِيرُ في

أُصُولِ التَّفْسِيرِ

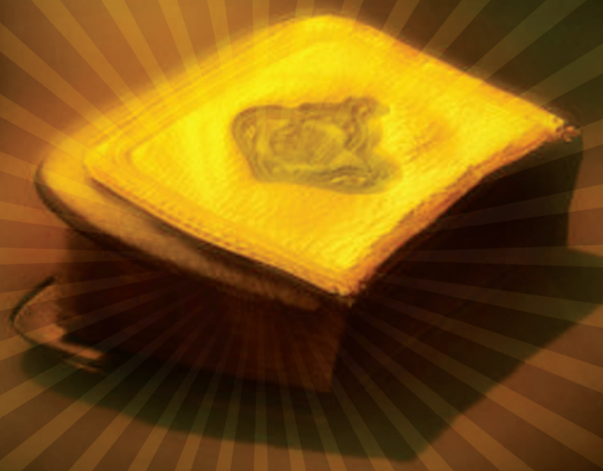

للشيخ

د. مُحَمَّد الْحُمُود النَّجْدِي

التَّيْسِيرُ في
أُصُولِ التَّفْسِير

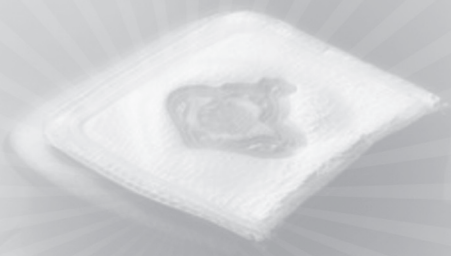

للشيخ
د. مُحَمَّد الحُمُود النَّجْدِي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

1432هـ - 2011م

إصدارات الأثري (4) :

موقع المؤلف

www.al-athary.net

حساب تويتر

alnajdi1

البريد الإلكتروني

alhomood1@yahoo.com

تلفون : 94476551 - 99496917 - فاكس : 24807666

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

الحمد لله الذي جعل كتابه موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة ونوراً للمؤمنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

فهذا بحث ميسر في «أصول التفسير» انتخبته من مراجع شتى، ومصادر متنوعة، رجوت الله تعالى أن ينفع به طلاب علم التفسير، والراغبين في الوقوف على معاني كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وفق منهاج سديد، وطريق رشيد.

وقد اقتصرت فيه على المباحث المهمة في هذا الباب، ومن أراد الاستزادة، فليرجع إلى الكتب المطولة في هذا الفن، والتي سنذكر بعضها.

سائلا المولى جلت قدرته، أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، إنه قريب مجيب،،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[1].

وكتبه/ د. محمد بن حمد الحمود النجدي

الكويت – ١٤١٥هـ

١- و قد تم نشر هذا البحث في مجلة الشريعة عام (٩٨/ ٩٩م) التي تصدر عن الإخوة في جمعية الشريعة بجامعة الكويت، جزاهم الله خيراً.
ثم في هذه السنة ١٤٣٢ هـ.

«تمهيد»

فضل القرآن الكريم

القرآن كلام الله تعالى، وكلامه سبحانه صفةٌ من صفات كماله وجلاله وجماله، وصفات الله عز وجل ليس يُماثلها شيءٌ ولا يشبهها، ولا يُحيط العباد بشيء منها، كما قال سبحانه ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) وقال سبحانه عن عظمة كلماته، وسعتها وكثرتها ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ (الكهف: ١٠٩) أي: لو كانت بحار الدنيا كلها حبراً تكتب به كلمات الله تعالى، لانتهت من أولها إلى آخرها، ولم تنته كلمات الله!

وهذا من باب التقريب، لأن هذه البحار مخلوقة، وكل مخلوق منته فانٍ، وأما كلام الله سبحانه – الذي هو صفة من صفاته – فلا حدّ له ولا انتهاء، فأي عظمةٍ وجلال وكمال فوق هذا ؟!

وللإمام السعدي رحمه الله تعالى في مقدمة تفسيره، وصفٌ مجمل رائع لكتاب الله تعالى، إذ يقول:

الحمدُ لله الذي أنزل على عبده الفُرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله برحمته هدى للناس عموماً وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر، والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم.

وأنزله شفاء للصدور، من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم، في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها، وآلامها وأسقامها.

وأخبر أنه لا ريب فيه، ولا شك بوجهٍ من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم، في أخباره، وأوامره ونواهيه.

وأنزله مباركاً، فيه الخيرُ الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركةٍ وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه.

وأخبر أنه مصدقٌ ومهيمن، على الكتب السابقة، فما شهد له، فهو الحق، وما ردّه فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها.

وقال تعالى فيه: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾(المائدة: ١٦)

فهو هادٍ لدار السلام، مبينٌ بطريق الوصول إليها، وحاثٌّ عليها، كاشفٌ عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام، ومحذر عنها.

و قال تعالى مخبراً عنه: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١). فبيَّن آياته أكمل تبيين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتمييز الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن، ووصفه بأنه «مجيد» والمجدُ: سَعَةُ الأوصافِ وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها.

ووصفه بأنه «ذُو الذكر» أي: يتذكر به العلوم الإلهية، والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢).

وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأَمَرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه.

وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاحُ كلِ خيرٍ، محصل للعلوم والأسرار.

فلله الحمد والشكر والثناء، على أن جعل كتابه هدى وشفاء، ورحمة ونوراً، وتبصره وتذكرة، وعبرة وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا عُلم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه، والاهتداء بها، وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه، بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

مَكَانةُ علمِ التَّفسير والعِناية به

قال العلامة الأصبهاني: أشرف صناعةٍ يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن، وبيان ذلك: إن علم التفسير قد حازَ الشَّرف من جهاتٍ ثلاث: من جهة الموضوع، ومن جهة الغرض، ومن جهة شدة الحاجة إليه.

أما من جهة الموضوع: فلأن موضوعه كلام الله سبحانه، الذي هو ينبوع كل حكمةٍ ومعدن كل فضيلة.

وأما من جهة الغرض، فلأن الغرضَ منه الاعتصامُ بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الأبدية التي لا تفنى، إذ به معرفة مراد الله سبحانه من كلامه المنزل على نبيه صلواته وسلامه عليه، ومعرفة مواضع أمره فتؤتى، ومواضع نهيه فتجتنب.

وأما من جهة شدة الحاجة إليه: فلأن كلَّ كمالٍ ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

قال مجاهد: أحب الخَلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أَنزل الله آيةً، إلا وهو يُحب أن تُعلم فيما أنزلت، وما أراد الله بها.

وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (١/٤): عن إياس بن معاوية أنه قال: مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلهم لمجيء الكتاب روعة، لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه.

و أخرج أحمد والنسائي وابن ماجة: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله أهلين من الناس» قالوا: يا رسول الله، من هم ؟ قال: «هم أهلُ القرآنِ، أهلُ اللهِ وخاصَّته».

فالمفسرون لكتاب تعالى، هم الجديرون لأن يكونوا أهل الله وخاصته، لأنهم هم أعلم الناس بكتاب ربهم جل جلاله، وتقدست أسماؤه، ومعانيه وأحكامه.

وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

قال علي بن ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وأخرج ابن أبي حاتم: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأني سمعت الله يقول ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وبيَّن الله تعالى أنه إنما أنزل الكتاب ليتدبر ويفهم، فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

وحثَّ عباده على تدبره فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) وذم المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

قال ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره: فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٨٧) وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ

ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(آل عمران: ٧٧)، فذَّم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا، بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمَّهم الله تعالى به، وأنْ نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الحديد: ١٦ - ١٧).

ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها، تنبيهٌ على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا، إنه جواد كريم انتهى كلامه رحمه الله.

المَقَاصدُ الأَصلية التي جاءَ القرآنُ لتبيانها

القرآن الكريم أنزله الله تعالى لصلاح أمور الناس كافة، ورحمة وهدىً، قال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩)، فهو كتاب هداية في كل شيء في المعتقد والشريعة والسلوك، أجملها الله تعالى في قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠) وقد شملت هذه الآية مقاصد الشريعة كلها.

ويمكن أن نُوجز مقاصد القرآن الكريم الأصلية في الأمور التالية:

أولا: إصلاحُ المعتقد، وإيضاحُ التوحيد والإيمان والدين الخالص، وإبطال الشرك والرد على حجج المشركين ومعتقداتهم الفاسدة، كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٥) وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٦٥) وقد حوت هذه الآية أنواع التوحيد الثلاثة.

ثانيا: بيان الشريعة، وهي الأحكام التي شَرعَها الله تعالى، وأمر عباده بالالتزام بها، ونهاهم عن مخالفتها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة:٤٨)، وقال ﴿ إِنَّآ

﴿ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:١٠٥).

ثالثا: تهذيبُ الأخلاق، والأمر بمحاسنها والحث على الاتصاف بها، والتحذير من مساوئ الأخلاق.

قال سبحانه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء في سورة الأنعام وجميل صفاتهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وقال عن نبيه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤).

ولما سُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

أي: إذا أردت معرفة خُلُقه ﷺ فاقرأ القرآن، فكل أمر الله تعالى به، وحث على التخلّق به، فإنه من أخلاقه ﷺ لمسارعته لامتثال أوامر ربه تعالى.

رابعا: سياسةُ الأمة، وهو بابٌ عظيم في القرآن، القصدُ منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، كالإرشاد إلى الاجتماع ونبذ الفرقة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ آل عمران:١٠٣، وقوله ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال:٤٦) وقوله في الشورى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨)، وقوله في طاعة الله ورسوله وأولي الأمر: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء:٥٩).

خامسا: ذِكْر القَصَص وأخبارُ الأمم السابقة وأنبيائهم، وما جرى من الحوادث الماضية ذات العبر والعظات، للتأسي بهم في أحوالهم وأخلاقهم، ولتعلم سنن الله تعالى في عباده، قال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (يوسف:٣).

وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١).

سادسا: ذِكْر المواعظ والتخويف، والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا في آيات الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: ٤٥). وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ (الأنبياء: ٤٥).

سابعا: الإعجازُ بالقرآن، والتحدي به في لفظه ومعناه، وأحكامه وأخباره، وليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣ - ٢٤).

أي «أيها المعاندون للرسول ﷺ، الرادين لدعوته ودينه، إن كنتم في شكٍ مما نز لنا عليه، هل هو حق أو باطل؟! فأتوا بسورةٍ تُشابه ما جاء به، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة والخطابة، فإن عجزتم عن ذلك، فهو دليلٌ واضح على صدقه، وأنه من كلام الله تعالى المعجز، وليس من كلام البشر».

على قارئ القرآن الكريم أن يراعي عند قراءته الآداب التالية:

أولا: إخلاصُ النية لله سبحانه وحده في القراءة أو الحفظ، وطلب الأجر والثواب من الله تعالى، والبعد عن الرياء والسمعة والمباهاة.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما أنه مرّ على قارئ يقرأ ثم سأل - أي سأل الناس - فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَرأَ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوامٌ يقرؤون القرآن، يسألون به الناس» رواه الترمذي، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٥٧).

وقد جاء في الحديث: «مَن قَرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حَسَنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقولُ (الَم) حرف، ولكن: ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرف، وميم حرف» رواه الترمذي.

وقال ﷺ: «اقرؤوا القرآنَ، فإنه يأتي شَفيعاً لأصحابه يوم القيامة» رواه مسلم.

أما تعليم القرآن وأخذ الأجرة على ذلك، فقد جاء الحديث بجوازه، وهو قوله: «إنّ أحقَّ ما أَخذتُم عليه أجراً، كتاب الله» رواه مسلم.

إن قصد بذلك تعليم الناس، وأخذ مقابل تفرغه وعمله.

ثانيا: يستحب للقارئ والذاكر لله تعالى عموما، الطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر.

أما مس القرآن، فلا بد له من الوضوء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَمسُّ القرآن إلا طاهر» رواه الطبراني في معاجمه والدارقطني والحاكم.

وكذا مراعاة النظافة في البدن والثياب والمكان.

فعن أبي ميسرة قال: لا يذكر الله إلا في مكان طيب.

ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد، لكونه جامعاً للنظافة، وشرف البقعة.

ثالثا: أن ينظف فمه بالسواك وغيره.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنّ أفواهكم طُرقٌ للقرآن، فطيّبوها بالسواك. رواه ابن ماجة وصححه الألباني.

رابعا: يستحب استقبال القبلة عند القراءة.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكلِّ شيءٍ سّيداً، وإن سيد المجالسِ قبالة القبلة» رواه الطبراني، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب.

وتجوز قراءة القرآن واقفاً وماشيا وراكبا ومضطجعا.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وثبت في الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حِجْري وأنا حائضٌ، ويقرأ القرآن» رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية: «كان يقرأ القرآن ورأسه في حجري».

ولا يشترط الحجاب لتلاوة القرآن للنساء.

خامسا: الاستعاذة من الشيطان الرجيم، لأنه مَطردةٌ له.

لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨).

وتقدير الآية عند الجمهور: إذا أردت القراءة، فاستعذ بالله.

وذلك أن الشيطان يحضر عند شروعه بالقراءة، ليصرفه عن مقاصد القرآن الجليلة، ومعانيه العظيمة، والتي فيها صلاح دينه ودينا.

والاستعاذة مستحبةٌ لكل قارئ، في الصلاة وخارجها.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله فيقول: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفخه ونَفْثه» رواه أبو داود وابن ماجة وصححه ابن حبان.

وكان أحيانا يزيد فيقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان...» رواه أبوداود والترمذي.

سادسا: القراءة بخشوع قلب، وسكون جوارح، مع استشعار عظمة من يقرأ كلامه.

قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١).

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء: ١٠٩).

وأن يكون بعيداً عن مواضع اللَّغط، وارتفاع الأصوات، وليترك العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، ومن ذلك النظر إلى ما يُلهي ويبدد الذهن، ليتحقق له الخشوع في القراءة، أو الإنصات للتلاوة.

سابعا: التدبّر أثناء القراءة، والتفكر في معاني الآيات التي يقرأها، وعدم هذّه، والاستعجال في قراءته، فبذلك تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.

لقوله سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

وقد قام النبي ﷺ بآية يردّدها حتى أصبح، وهي قوله ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن

﴿تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨). رواه أحمد والنسائي.

وجاء رجل إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إني لأقرأ المفصل في ركعة ؟! فقال عبد الله: هذّاً كهذّ الشعر؟! إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يُجاوز تَراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع. رواه مسلم (٨٢٢) وأحمد (٣٦٠٧).

والهذّ: شدة الإسراع في القراءة، وهي عادة العرب في الشّعر.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا: «من أراد علماً فليقرأ القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين».

وفي لفظ آخر: «من أراد علما فليثور القرآن، فإنه خير الأولين وخير الآخرين» وسنده صحيح، أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص ١٥٧) وابن أبي شيبة (٣٥٨٣٩) وغيرهما.

يثور القرآن: أي يُنقِّر عن معانيه، ويتفكر فيه.

وقال الحسن البصري: إنّ من كان قبلكم رأوا أن هذا القرآن رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها في النهار.

ثامنا: ترتيل القرآن ترتيلا، وأن لا يختمه في أقل من ثلاث، ولا يجعل همّه عند التلاوة بلوغ آخر السورة.

لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤).

وقوله ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

فقوله (على مكث) أي: على مُهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه وعلومه.

وقول رسوله ﷺ: «لا يَفقه مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة، وصححه الألباني رحمه الله.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ولا أعلم نبي الله ﷺ قَرَأ القرآن كلّه في ليلة، ولا قام ليلةً حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملا غير رمضان. رواه مسلم (٧٤٦) وأحمد (٥٤/٦).

تاسعا: سؤال الله سبحانه من رحمته عند المرور بآيات الرحمة، والتعوّذ من عذابه عند المرور بآيات العذاب.

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ. رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

فقال بعض العلماء: هو في صلاة الليل فقط.

وقال الأكثر: يستحب هذا السؤال والاستعاذة والتسبيح لكل قارئ، سواء كان في الصلاة أو خارجها، ويستحب ذلك في صلاة الإمام والمنفرد والمأموم، لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب الفاتحة، وهذا مذهب جماهير العلماء رحمهم الله.

وكذا البكاء والتأثر عند قراءة القرآن، وهو صفة النبيين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء: ١٠٩).

عاشرا: التغني بالقرآن، وتحسين الصوت به، دون تكلف.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا مَنْ لم يَتَغنَّ بالقرآن» وزاد بعضهم: «يجهر به» رواه البخاري (٧٥٢٧).

وعنه أيضا: أن رسول ﷺ قال: «زيّنوا القرآنَ بأصواتكم» رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

وقال ﷺ: «حسّنوا القرآن بأصواتكم، فإنّ الصوت الحَسن يزيد القرآن حُسنا» رواه

الدارمي (٣٣٧٣) والحاكم والبيهقي.

الحادي عشر: تقطيع القراءة آية آية.

وذلك بالوقف عند رؤوس الآيات.

فعن أم سلمة رضي الله عنها: أنها ذكرت - أو كلمةً غيرها - قراءة رسول الله ﷺ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقطع قراءته آية آية. رواه أبو داود (٤٠٠١).

وفي رواية الترمذي (٢٩٢٨): كان يقطّع قراءته، يقول (الحمدُ لله رب العالمين) ثم يقف (الرحمن الرحيم) ثم يقف.

الثاني عشر: العمل بالقرآن، والإئتمار بأوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، إذً الأصل أن يكون حفظ القرآن وتلاوته، وسيلةً للعمل به، والتحاكم إليه، وطريقا للتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ولقد رأينا رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب الى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدّقل ـ أي: رديء التمر ويابسه . رواه الحاكم والبيهقي.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات، لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

الثالث عشر: حضور القلب عند التلاوة، والاستماع والإنصات إلى قراءة غيره في الصلاة وغيرها، وعدم الانشغال عنها.

لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

ومن ذلك: اجتناب الضحك واللغط والحديث خلال استماع القراءة، إلا كلاماً يضطر إليه.

الرابع عشر: الأفضل أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة ثم البقرة، ثم آل عمران، ثم ما بعدها على الترتيب، سواء كان في الصلاة أو في غيرها.

الخامس عشر: عدم قطع القراءة في الصلاة إلا لضرورة:

فعن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أن لا انتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلا فقال: «من رجل يكلؤنا ؟» فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «كونا بفم الشعب» قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم، قال: سبحان الله ؟! ألا أنبهتني أول ما رمى قال: كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها.

السادس عشر: السجود عند تلاوة آية سجدة، أو سجود القارئ:

فعن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.

رواه البخاري ومسلم.

عن أبي هريرة أنه قال: سجد رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. رواه مسلم.

والسجود للتلاوة مستحب، وليس بواجب.

فعن زيد بن ثابت قال: قرأت على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد فيها. رواه البخاري.

وعن ربيعه بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة، قرأ بها حتى إذا جاء السجدة، قال: يا أيها الناس، إنا نمرّ بالسجود، فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه، ولم يسجد عمر.

وزاد نافع: عن ابن عمر رضي الله عنهما: إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء. رواه البخاري.

ولا تشترط لسجود التلاوة الطهارة على الصحيح، وليس فيه تسليم بعده، ولا تكبير عند الرفع منه، على الصحيح أيضا.

فائدةٌ في شروط الانتفاع بالقرآن

قال الإمام أبو عبد الله ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد:

إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآنِ، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعَكَ، واحضر حضورَ من يخاطبُه به، من تكلّمَ به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧).

وذلك أنّ تمامَ التأثيرِ، لمّا كان موقوفاً على مُؤثّرٍ مُقتضٍ، ومَحَلّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثرِ، وانتفاء المانعِ الذي يمنعُ منه، تضمّنتِ الآيةُ بيان ذلك كلّه، بأوجزِ لفظٍ، وأبينهِ وأدلّه على المرادِ.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدّمَ من أولِ السورةِ إلى ههنا، وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمرادُ به: القلب الحي الذي يعقلُ عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ﴾ أي: حيٌّ القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعَه، وأصغى حاسةَ سمعِهِ إلى ما يقالُ له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهدُ القلبِ، حاضرٌ غيرُ غائب.

قال ابن قتيبة: استمَعَ كتابَ اللهِ وهو شاهدُ القلبِ والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ.

وهو إشارةٌ إلى المانعِ من حصول التأثيرِ، وهو سهو القلبِ وغيبتُه عن تعقُّلِ ما يُقالُ له،

والنظرِ فيه وتأمُّلِه.

فإذا حصلَ المؤثِّرُ وهو: القرآن.

والمحل القابل وهو: القلب الحي.

ووجِدَ الشرطُ وهو: الإصغاء.

وانتفى المانع وهو: اشتغال القلب، وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلي شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكُر.

ما هو القرآن الكريم ؟

تعريفه: هو الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المنقول نقلاً متواتراً.

وأول ما نزل فيه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥).

وآخر آية نزلت منه على أحد الأقوال: هي قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣).

وروى النسائي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر شيءٍ نزل من القرآن ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨١).

وروىبن أبي حاتم: أن النبي ﷺ عاش بعد هذه الآية تسعَ ليالٍ، ثم مات يوم الأثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. (حسن التحرير ١/٢٣٤).

وهو مائة وأربع عشرة سورة، نزل منجماً (مفرقاً) ثلاثاً وعشرين سنة.

ما هي أصول التفسير؟

تعريفها: الأصول: جمع أصل، وهو في اللغة عبارة عما يُفتقر إليه، ولا يفتقر هو إلى غيره.

أو الأصل: ما يثبت حكمة بنفسه، ويُبنى عليه غيره (التعريفات للجرجاني).

وأما التفسير: ففي اللغة: هو الكشف والإظهار، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣)، أي: بياناً وتفصيلاً.

فالتفسير لغة: هو الكشف والبيان.

أما شرعاً: فهو توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها، وسبب نزولها.

فعلم أصول التفسير: هو ما يُبنى عليه علم التفسير، حسب قواعده وضوابطه ومناهجه.

أما «علم التفسير» فعرَّفه الزركشي: بأنه علم يُفهم به كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ، واستخراج أحكامه وحكمه (١/ ١٣، ١٤).

أحسنُ طرق التفسير

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن

إن أصح الطرق في تفسير القرآن، أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فسّر في مكان آخر، وما اختصر في موضع، فقد بسط في موضع آخر، فالقرآن يُبيّن بعضه بعضاً.

فمثلاً، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢) ولم يبين هنا ما العالمون؟ وبين ذلك في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء:٢٣ - ٢٤) ومثل قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) لم يبينه هنا، ووقع في سورة الانفطار سؤال عنه وجواب، وهو قوله: ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٨ - ١٩).

وتارة يُبهم الاسم في موضع، ويُسمّى في موضع آخر، كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الدخان:٢٥ - ٢٨) فالقوم اسم جمع وقد أبهمه هنا، وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ (الأعراف:١٣٧) الآية، ولكنه بين في سورة الشعراء في قوله تعالى في القصة بعينها ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء:٥٧ - ٥٩).

و من أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (النمل:٤٣)

فإنه أبهم القوم هنا، ولكنه أشار أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقرراً له ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل: ٢٢).

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة النبوية

فإنها شارحةٌ للقرآن، وموضّحه له، ومبينه لما أشكل منه وغمض.

قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤).

فالذكر هو القرآن، والبيان النبوي شاملٌ للألفاظ والمعاني.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٦٤).

بل قال الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥).

فالنبي ﷺ كان يبين القرآن بألفاظه ومعانيه، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

١- ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٢) شَقَّ ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) إنما هو الشرك» متفق عليه.

٢- وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠): «ألا وإن القوّة الرمي، ألا وإن

القوة الرمي» أخرجه أحمد ومسلم.

٣- حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن نُوقِش الحساب يوم القيامة عُذِّب» فقالت: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٧ - ٨) قال ﷺ: «إنما ذلك العَرْض» رواه البخاري.

٤- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهرٌ أعطانيه ربي في الجنة» رواه أحمد ومسلم.

ومن القرآن مالا يمكن معرفته والعمل به، إلا بالاطلاع على السنة النبوية، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النور:٥٦) فقد بَيَّن النبي ﷺ للأمة كيف تصلي، وأمرها بقوله: «صلوا كما رأيتُمُوني أصلِّي» متفق عليه.

وكذا بيَّن للأمة في أي شيء تكون الزكاة، وبين أنصبتها ومقاديرها، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ: «ألا وإني أتيتُ الكتاب ومثله معه» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

ثالثاً: التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم

فإذا لم يجد المفسِّر التفسير في السنة النبوية، رجع إلى أقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم أعلم بالناس بالتفسير، لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزول القرآن، ولقربهم من رسول الله ﷺ، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والمعرفة بلغة العرب التي هي لغة القرآن، والعمل الصالح والتقوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن، كما بينَّ لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤) يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانُوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود، أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يتجاوزها حتى يَعْلَموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة، قال أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جدَّ فينا» (أي: عظم شأنه) رواه أحمد في مسنده.

وأقام ابن عمر رضي الله عنهما على حفظ البقرة ثماني سنين، أخرجه مالك.

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص:٢٩) وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (النساء:٨٢) وتدبر الكلام دون فهم معانيه لا يمكن. اهـ[1].

واشتهر منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن مسعود ابن عباس وأبي ابن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى

١- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٥٣).

الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو وابن عمر، وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعة: علي بن أبي طالب، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم عليه، رضي الله عنهم أجمعين.

و جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «و الذي لا إله غيره، ما نَزلت آيةٌ من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نَزلَت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني، تناله المطايا، لأتيته» رواه ابن جرير.

وأما ابن عباس رضي الله عنهما، فقد دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم عَلِّمه التأويل، وفَقِّهه في الدِّين» فكان ترجمان القرآن، وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجلّه.

ويمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن، إلى الشعر العربي، لمعرفته بلغة العرب، وإلمامه بديوانها.

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته العظيمة، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكان مما ليس للرأي فيه مجال.

أما ما يكون للرأي والفقه فيه مجال، فهو موقوف عليه، ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

والموقوف على الصحابي من التفسير، يوجب بعض العلماء الأخذ به، لأنهم رضي الله عنهم أهل اللسان العربي الفصيح، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها لقربهم من النبي ﷺ، ولما لهم من الفهم الصحيح.

قال الإمام الزركشي في البرهان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسمٌ ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول: يبحث

فيه عن صحة السند. والثاني: ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتماده. أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه» [1].

وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: «وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم».

١- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص ٣٣٧)

رابعاً: التفسير بأقوال التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم التفسير، بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر في هذا العالم.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي رحمه الله: وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والفهم والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله ﷺ، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض على تدرج كلما بَعُد الناس عن عصر النبي ﷺ والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحاديث التي حدثت في عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم، ووسائل البحث» [1].

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار

١- التفسير و المفسرون (١/ ٩٩ ١٠٠).

المفتوحة، ولدى كل واحدٍ منهم علمٌ، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس، واشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وفي المدينة اشتهر أبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره، وكثر ما نقل في ذلك. واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة بالواسطة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد ابن كعب القرظي.

وفي الكوفة نشأت مدرسة ابن مسعود رضي الله عنه، التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي، وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر منهم: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

هؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين في الأمصار الإسلامية، الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم، وخلفوا لنا تراثاً علمياً خالداً.

واختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة، أيؤخذ بأقوالهم أم لا ؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم، لأنهم تلقوه غالباً عن الصحابة.

والذي يترجح: أنه إذا أجمع التابعون على قول، فإنه يجب علينا أن نأخذ به، ولا نتعداه إلى غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

وهذا صحيح، أما إذا اجتمعوا على الشيء، فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك» [1].

والاختلاف في تفسير الآيات المنقول عن الصحابة والتابعين، قليل جداً بالنسبة إلى من بعدهم، وأكثره لا يعدو أن يكون اختلافاً في التعبير مع اتحاد في المعنى، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمى، ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن، أي اتباعه، وقال بعضهم: هو الإسلام. فهذان القولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نَّبه على وصفٍ غير الوصف الآخر.

الصنف الثاني: أن يذكر كلٌّ منهم من الاسم العام بعض أنواعه، على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

مثال ذلك: ما نقل في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٥).

﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (فاطر:٣٢)، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات، والمنتهك للحرمات.

والمقتصد: يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق: يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق: الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق: المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع، وأمثال هذه الأقاويل[1].

وكاختلافهم في تفسير اللغو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٣).

فقال بعضهم: هو الشرك، وقال آخرون: المعاصي، وقال غيرهم: مالافائدة فيه من الأقوال والأفعال، وقيل: هو الباطل، فيشمل كل ما سبق.

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ لأمرين، كلفظ ﴿عَسْعَسَ﴾ الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، أو لأن الألفاظ التي عبر بها عن المعاني متقاربة، كما إذا فسر بعضهم (تُبسل): بـ تحبس، وبعضهم: بـ تُرهن، لأن كلاً منهما قريب من الآخر.

١- مقدمة في أصول التفسير (٣٨- ٤٤) باختصار و تصرف يسير.

خامساً: تفسير القرآن بالرجوع إلى اللغة العربية

فقد جرت سنة الله تعالى بأن يرسل كل رسول بلسان قومه ليتم تخاطبه معهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ إبراهيم:٤ ولما كان محمد ﷺ عربياً من أمة تتكلم باللسان العربي، فإن الكتاب الذي أُنزل عليه عربي، وبذلك نطق محكم التنزيل ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ (الشعراء:١٩٢ - ١٩٥) فألفاظ القرآن عربيةٌ فصيحةٌ، لا تخالف لغة العرب، بل هي في قمة البلاغة والفصاحة والبيان.

فعن ابن عباس أنه سئل عن قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ (القلم:٤٢) قال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه من الشعر، فإنه ديوان العرب.. رواه ابن جرير (٢٩/ ٢٤) والحاكم والبيهقي في الأسماء.

وقد اختلف العلماء في ألفاظ من القرآن الكريم: هل هي من لغات أخرى وعربت؟ أم هي عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللغات؟ مثل: الفردوس، القسطاس، السندس، الاستبرق، سجيل، قسورة، القرطاس، ناشئة، أَوّبى.

فالأكثرون ومنهم الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس: على عدم وقوع المُعَرَّب في القرآن، لقوله تعالى: ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ (يوسف: ٢).

وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك (انظر الرسالة ص٤٠-٣).

وقال الإمام ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ القرآن، أنها بالفارسية والحبشية والنبطية أو نحو ذلك، إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها

العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد.

و قال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: أعجمية فصادق.

ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون.

(انظر الإتقان للسيوطي ١/ ١٧٨ - ١٨٠).

ضوابط التفسير اللغوي:

لا بد عند التفسير اللغوي للقرآن، من التنبه لبعض الضوابط التي ذكرها علماء التفسير.

فقد حذَّر القرطبي في مقدمة تفسيره من: «أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثُر غلطه، ودخل في زُمرة من فسَّر القرآن بالرأي» [1].

فمن الألفاظ المبدلة مثلاً من المعاني اللغوية إلى الشرعية: التيمم الوضوء الصلاة الزكاة الحج العمرة.

وقال الإمام المحقق ابن القيم: «وينبغي أن يتفطن هنا لأمرٍ لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحويٍ والإعرابي، الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غَلط فيه أكثر المعربين للقرآن.

فللقرآن عُرْفٌ خاص، ومعانٍ معهودة، لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عُرفه والمعهود من معانيه»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه لخطأ من أخطأ في تفسير القرآن بغير المنقول، وأنه حَدَث من جهتين: «أحدهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!

١- تفسير القرطبي (١/ ٣٤).

٢- التفسير القيم (ص ٢٦٨ ٢٦٩) باختصار.

والثاني: قومٌ فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه، من غير نظرٍ إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به!

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ! والآخرون راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به عندهم العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام.

ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق [1].

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ٧٩ - ٨١).

غرائب الألفاظ في القرآن

ليس المراد بغريب القرآن، اللفظ المنكر أو الشاذ أو المهجور غير المستعمل من لغة العرب، فإن القرآن منزهٌ عن هذا جميعه، إنما المراد بالغريب هنا: هو اللفظ الذي يخفى على بعض الناس معناه، لكونهم يستعملون المرادف له بينهم، وهو ما يسمى بلغات العرب، أو لبعدهم عن معرفة العربية وألفاظها، وكثرة العُجمة في ألسنتهم لاختلاطهم بغيرهم من الأمم الأعجمية.

ومعرفة هذا الفن ضرورية للمفسر، ومَن عَرَضَ له لفظٌ غريب، فلا يخوض فيه بغير علم، بل ينبغي التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن، وعدم الخوض بالظن، فهؤلاء هم الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحى، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم، توقفوا في ألفاظ، لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً.

فعمر رضي الله عليه توقف في معنى «الأبّ» في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس:٣١) كما سيأتي ذكره.

وأخرج أبو عبيد في فضائل القرآن: «عن مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات، حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.

وعن سعيد بن جبير أنه سُئل عن قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (مريم:١٣) فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً [1].

أما الكتب المؤلفة في هذا الفن فكثيرة منها: كتاب «غريب القرآن» لابي محمد ابن قتيبة، و«المفردات» للراغب الأصبهاني، و«تفسير غريب القرآن» لابن الملقن.

١- انظر الإتقان (١/ ١٤٩ ١٥٠) و قد ساق ما ورد من تفسير الغريب من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، والتي اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

تدوين التفسير

بدأ تدوين التفسير في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد العباسيين، وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ، ويروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة، كما يروي بعضهم عن بعض.

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، ابتدأ تدوين الحديث النبوي في الكتب، وكان التفسير أحد الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص، بحيث يفسر فيه القرآن آية آية من مبدئه إلى منتهاه.

ومن تلك الكتب الحديثية في التفسير: تفسير الثوري (١٦١ هـ) وتفسير عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١ هـ)، وعبد بن حميد (ت ٢٤٩ هـ) وغيرهم.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، وُرتِّب على حسب ترتيب المصحف، على أيدي طائفة من العلماء كالإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١١ هـ) وأبي بكر بن المنذر (ت ٣١٨ هـ) وابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) وأبي الشيخ (ت ٣٦٩ هـ) وأبي بكر بن مردوية (ت ٤١٠هـ) وغيرهم من الأئمة.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابع التابعين، وليس فيها شيء أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبري فإنه يذكر الآثار ثم يوجهها، ويرُجِّع بعضها على بعضها، ويذكر الإعراب، ويستنبط الأحكام الفقهية وغيرها.

ثم بدأ التوسع في الكلام على معاني الآيات، ومباحثها الفقهية واللغوية وذكر أسباب النزول ونحوها.

ثم انقسم التفسير بعد ذلك إلى قسمين: تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور (النَّقلي)

التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول، بالمراتب التي ذكرناها سابقاً، من: تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة، أو بما جاء عن الصحابة، أو بما جاء عن التابعين.

والتفسير بالمأثور يهتم بالآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل، وكذا لا يخوض فيما لا طائل تحته، مما لم يرد فيه نقل.

ولا شك أن هذا المنقول فيه الصحيح الإسناد والحسن والضعيف، وما لا أصل له أيضاً، فلا بد لمن يريد التفسير بالمأثور، من الإلمام بعلم الحديث رواية ودراية.

كما لا بد له من المعرفة بحقيقة الاختلاف، الذي يقع في المنقول عن السلف، الذي سبق ذكره وهو أن أكثره اختلاف تنوع، وأن يُحسِن الجمع والتنسيق بين الروايات المختلفة.

ثم عدم الاعتماد على الروايات الإسرائيلية، التي امتلأت بها بعض كتب التفسير، وهي ليست من علم التفسير في شيء، بل فيها من البلايا والكذب على الله ورسله ما الله به عليم.

وقاعدة الإسرائيليات التي قررها العلماء:

١- أن توافق ما عندنا من النصوص، فنقبلها.

٢- أن تخالف ما عندنا من النصوص، فنكذّبها.

٣- أن لا توافق ولا تخالف فإنا نتوقف فيها، وهي التي عناها ﷺ الرسول بقوله: «لا تُصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، و﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن

﴿رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦) رواه البخاري.

وقوله: «حَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج» متفق عليه.

وقد ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أنكر على من يحدث بأحاديث أهل الكتاب، فقال فيما أخرجه البخاري: عن عبيد الله بن عبد الله عنه أنه قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟! وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بَدَّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم؟! لا والله ما رأينا منهم أحداً قط، سألكم عن الذي أنزل إليكم» [1].

ومقصود ابن عباس رضي الله عنهما: النهي عن تصديق أهل الكتاب، فيما لايُعرف صدقه.

وأكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

١- رواه البخاري في الشهادات (٥/ ٢٩١) باب: لايُسأل أهلُ الشرك عن الشهاده وغيرها.

شروط التفسير النقلي:

بما أن التفسير النقلي يتعلق بعلم الرواية، فإنه مرتبط بعلم الحديث رواية ودراية.

ومن أهم الشروط التي تتعلق بالتفسير بالمأثور:

أ – أن يكون المفسر على معرفة بالسنة، رواية ودراية.

أما رواية: فيعرف صحة الأحاديث والآثار، إذْ لا يصح تفسير الآيات بالأحاديث الضعيفة، فضلاً عن تفسيرها بالأحاديث المكذوبة والواهية والمنكرة!

وأيضاً: أن يكون ملماً بما ورد في السنة مما يتعلق بالتفسير من أحاديث وآثار.

أما دراية: فأن يكون ممن يحسن الجمع بين الحديث والآية، قادراً على التنسيق بين الروايات المختلفة، صادراً عن أقوال الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان في ذلك.

التفسير بالرأي

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما يتضمن من القول على الله تعالى بغير علم، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٨ - ١٦٩).

ووصف الله تعالى أهل الشرك بقوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن قال في القرآن برأيه، فقد تكلَّف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ، لأنه لم يأت الأمر، لكن يكون أخف جُرْماً ممن أخطأ، والله أعلم.

ولهذا تحرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما جاء عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أي أرضٍ تُقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلتُ في كتاب الله مالا أعلم» إسناده صحيح، رواه أبو عبيد وغيره.

وعن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس: ٣١) فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر!» رواه أبو عبيد والطبري بسند صحيح[1].

١- هذا محمول على أنه إنما أراد استكشاف ماهية الأب، و إلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس: ٢٧ - ٣١).

وعن ابن أبي مليكة أن ابن عباس: «سُئل عن آية لو سُئل عنها بعضكم، لقال فيها، فأبى أن يقول فيها» وسنده صحيح رواه ابن جرير.

وعنه قال: سأل رجلٌ ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة، فقال ابن عباس: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ قال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، والله أعلم بهما. فكرِه أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً.

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن رواه ابن جرير (٩٥).

وعن عبيد الله بن عمر قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع» رواه ابن جرير (٩٢) بسند صحيح.

وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين: سألت عبَيدة السلماني (وهو تابعي كبير مخضرم وثقة ثبت) عن آية من القرآن، فقال: «ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أُنزل القرآن، فاتق الله، وعليك بالسداد» رواه ابن جرير (١/ ٨٦).

وعن الشعبي عن مسروق قال: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله» رواه أبو عبيد.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه.

ولهذا رُوي عن هؤلاء وغيرهم أقوالاً في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه،

وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سُئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

ولما جاءه في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علمٍ فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه الطبراني في الكبير والأوسط، عن عبد الله ابن عمروٍ، ونحوه عن أبي هريرة عند أبي داود والترمذي وابن ماجة [١].

وقال الإمام المفسر أبو جعفر بن جرير بعد أن ساق بعض الآثار السابقة: وأما الأخبار التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين بإحجامه عن التأويل، فإنه مَنْ فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلةٍ وحادثةٍ حكماً موجوداً بنص أو بدلالة، فلم يكن إحجامه عن القول إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده، ولكن إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من علماء السلف [٢].

قلت: فالخلاصة مما سبق: أن من خاض في تفسير القرآن دون أن يراعى في تفسيره الطرق السابقة من تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة، ثم بأقوال السلف، أو خالف بتفسيره المعلوم من اللغة العربية، فهذا هو المذموم الذي جعل هواه رائده، ومذهبه قائده، وكذا من أجاز لكل أحد أن يفسر كتاب الله تعالى؟! ويقول فيه بغير علم؟!

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٨ - ١١٥) باختصار و تصرف يسير.

٢- جامع البيان (١/٨٩).

وأما من وافق تفسيره الطرق الحسنة المذكورة، واجتهد في الوصول إلى المراد بالآيات، فهذا مأجور أجرين إن هو أصاب، وأجراً واحداً إن هو أخطأ.

وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم قد بيَّنوا للخلق معاني القرآن العظيم، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسيره من النبي ﷺ، إذ لم يُبيِّن لهم النبي ﷺ كل آية من القرآن، بل بيّن لهم ما أشكَل عليهم منه، والباقي توصلوا إلى معانيه بمعرفتهم بالقرآن وبالعربية وباجتهادهم.

وهذا معنى دعاء النبي ﷺلابن عباس: «اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل» فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل أمر آخر وراء النقل والسماع، وذلك هو التفسير بالاجتهاد.

المفسرون بالرأي المذموم

وهم كما سبق المخالفون للمنهج السليم في تفسير القرآن الكريم، من تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسُّنة، ثم بأقاويل السلف رضي الله عنهم، وهم كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قومٌ اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!».

وقال: «وهم صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن وما دلَّ عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به! وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول، وهذا كما وقع في تفسير القرآن، فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث.

فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع، اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الوسط، الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة، يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه.

ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم.

وهذا كالمعتزلة مثلاً: فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم. ومثل كتاب أبي علي الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري [1].

فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة، وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم: التوحيد،

١- المشهور من هذه الكتب: «الكشاف» الذي طُبع مراراً، و تعقبه ابن المنذر المالكي وغيره و بيَّن مواطن الزلل أو الخطأ في الدليل والمدلول، و الكتاب ملئ بتحريفات الزمخشري، وسيأتي كلام شيخ الإسلام فيه.

والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات، ولذلك قالوا: إن الله لا يُرى؟! وإن القرآن مخلوق؟! وإنه تعالى ليس فوق العالم؟! وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة، ولا صفة من الصفات؟؟!

وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة، كالمفيد وأبي جعفر الطوسي وأمثالهم، ولأبي جعفر هذا التفسيرعلى هذه الطريقة، لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثنا عشرية، فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك، ولا من ينكر خلاف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة، إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، دليلاً على قولهم أو جواباً عن المعارض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب «الكشاف» ونحوه، حتى إنه يروج على خَلق كثير، ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله انتهى كلامه رحمه الله.

المَكيُّ والمدني

بلغ من عناية الصحابة والتابعين بالقرآن الكريم وضبطه، معرفة ما نزل منه بمكة أو المدينة أو غيرهما من الأماكن، كما سبق أن نقلنا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «و الله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبلُ، لركِبت إليه» [1].

ومعرفة المكي والمدني مهُم في التفسير، وذو فائدة جليلة في معرفة تاريخ التشريع، والتدرج في الأحكام، والعلم بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ومعرفة أسلوب الدعوة، وتنوع الخطاب الإلهي لهذه الأمة باختلاف أحوالها.

وقد عني العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي والمدني، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه لجهدٌ كبير، أن يتتبع الباحث والمفسر منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة، أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة ؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة، رجَّح بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل في مكة، وبعضها شبيهاً بما نزل في المدينة.

١- رواه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٤٧).

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان، ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر، ضبط العلماء هذا كله، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة [1].

بعض الآيات المكية في السور المدنية والعكس:

لا يُقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية، أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في السور المكية بعض الآيات المدنية، وفي السور المدنية بعض الآيات المكية.

فالوصف إذاً أغلبي، أي حسب أكثر آياتها.

ولذا يأتي في التسمية: سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية كما نجده في المصاحف.

١- فمن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية: «سورة الأنفال» مدنية، واستثنى منها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

٢- ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية: «سورة الأنعام» هي مكية، إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ

١- مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ٥٣).

فَأَعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١ - ١٥٣).[1]

٣- ما نزل بمكة وحكمه مدني: ويمثل له بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) فإنها نزلت بحجة الوداع بعرفات، كما جاء في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح.

٤- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي: ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهي مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي مكة.

ومثل هذا صدر سورة «براءة» نزل بالمدينة، والخطاب لمشركي مكة.

٥- ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً: أكثر القرآن نزل نهاراً، أما ما نزل بالليل فقد جاء ذكره في بعض الأحاديث، مثل حديث كعب بن مالك في الصحيحين: «فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل» وهي قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ (التوبة: ١١٧ - ١١٨).

وفي البخاري: من حديث عمر: قوله ﷺ: «لقد نزلت على الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» فقرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح: ١).

٦- ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً: ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلالة، التي في آخر سورة

١- مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ٥٣).

النساء، ففي صحيح مسلم: عن عمر: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء، ما راجعته في الكلالة...، فقال: يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف، التي في آخر سورة النساء».

و يمثلون للشتائي: بآيات براءة عائشة رضي الله عنها في سورة النور، وأولها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ (النور: ١١ - ٢٦)، ففي الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها: أنها نزلت في يوم شاتٍ».

ومن أمثلته أيضاً: الآيات في غزوة الخندق من «سورة الأحزاب» حيث كانت في شدة البرد، كما جاء في الأحاديث الصحيحة [١].

٧- ما نزل حضراً وما نزل سفراً: أما الحضري فأمثلته كثيرة، وأما السفري فله أمثلة منها: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾ (البقرة:١٩٦) الآية، نزلت بالحديبية، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذي نزلت فيه.

ومنها: آية التيمم، ففي الصحيح: عن عائشة أنها نزلت بالبيداء، وهم داخلون المدينة.

وقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسين:

المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسي الاجتهادي.

فالمنهج السماعي النقلي: يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة، وسمعوا منهم أسباب النزول، ومواقعها وأحداثها.

وسيأتي أمثلة لهذا المنهج فيما يأتي، وفي الكلام على أسباب النزول.

١- انظر الإتقان (١/ ٢٤ - ٣١) و مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ٥٥ - ٥٩).

أما المنهج القياسي الاجتهادي: فهو يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه، قالوا: إنها مدنية.

وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه، قالوا: إنها مكية.

فهو منهج يستند إلى الاجتهاد والنظر.

فمثلاً قالوا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية، فهي مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حدّ، فهي مدنية، وهكذا.

ولهم أيضاً في التفريق بين المكي والمدني، ثلاثة آراء اصطلاحية:

الأول: اعتبار زمن النزول: فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.

الثاني: اعتبار مكان النزول: فالمكي ما نزل بمكة وما جاورها، كمنى وعرفات والحديبية، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها، كأحد وقباء وسلع.

والثالث: اعتبار المخاطب: فالمكي ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

فمثلاً قالوا: ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ مكي، وما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مدني.

وبالملاحظة يتبين أن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية وفيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وسورة الحج مكية وفيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[1].

وقيل: قولهم هو مكي، هذا إنما هو في الأكثر، وليس بعام[2].

ميزات المكي والمدني:

استقرأ العلماء السور المكية والمدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها، وخرجوا من ذلك بقواعد وميزات.

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

٢- كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

٣- كل سورة فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وليس فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾ (الحج:٧٧) ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الغابرة، فهي مكية سوى البقرة.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس، فهي مكية، سوى البقرة كذلك.

١- نظر الإتقان للسيوطي (١/ ١١ -١٢) و مباحث في علوم القرآن (ص ٦١ - ٦٢).

٢- الإتقان (١/ ٢٣).

٦- كل سورة تفتتح بحروف التهجي كـ «ألم» و «ألر» و «حم» ونحو ذلك فهي مكية، سوى الزهراوين: وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية، وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

٢- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣- ذكر قصص الأنبياء والأمم زجراً لهم، حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله ﷺ وسلم حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصخ الآذان، ويشتد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادراً.

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها فريضة أو حد، فهي مدنية.

٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، سوى العنكبوت فإنها مكية.

٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب، فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب، فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤- طول المقاطع والآيات، في أسلوب يقررٌ الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها [١].

١- مباحث في علوم القرآن (ص ٦٣ - ٦٤)، و انظر الإتقان (٢٢ - ٢٣).

المُحْكم والمتشابه

المحكم والمتشابه مما ورد ذكره بكتاب الله تعالى، حيث يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران: ٧).

فيخبر تعالى أنه تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي منه ﴿ آيّات مُحَكّمّاتِ ﴾ أي: واضحات المعاني، لا تحتمل إلا وجهاً واحداً في التفسير، فلا تشتبه بغيرها، كقوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النساء: ١٧١) فاحتج به بعض النصارى على تعدد الإله!!.

﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه، ويعوّل عليه، ويرد إليه ما تشابه من آياته وأشكل من معانيه.

﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ أي: محتملات لأكثر من معنى، ولا يتعين أحد الاحتمالين بمجردها، حتى تضم المحكم، كقوله ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٤).

فأما أهل العلم الراسخين فيه، المتمكنون منه، فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه حق كله محكمه ومتشابه، لا يتناقض ولا يختلف، ولذا فهم يردُّون المتشابه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:٧) أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح، أولو العقول السليمة، والفهوم المستقيمة [١].

١- انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٣) بتهذيبنا، وتفسير السعدي وغيرهما

الناسخ والمنسوخ

النسخ معناه في اللغة: الإزالة والإبطال، يقال: نسخَت الشمسُ الظلَّ، أي: أزالته.

والنسخ أيضاً: النقل، يقال: نسخت الكتاب، أي: نقلته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩).

أما النسخ في الاصطلاح: فهو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر، أي: أن يرفع الشارع حكماً من أحكامه، بخطابٍ متأخر عنه.

حِكْمة النسخ:

١- إظهار الربوبية لله تعالى، والتصرف في الأشياء، فيحكم فيها بما يريد، ويفعل ما يشاء.

٢- إظهار العبودية له سبحانه، والانقياد له بالطاعة، بكمال الخضوع كيفما يشاء، فيتميز المطيع المنقاد من غيره.

٣- التيسير ورفع المشقة عن العباد، وذلك بنسخ الأمر الشديد إلى اليسير، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٦).

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

٤- التدرج بالشريعة، ليسهل قبولها والعمل بها، فيما يشرع حالة الضعف، لا يصلح لحالة القوة، وهكذا حتى استقرت الشريعة.

وقوع النسخ في القرآن:

دليل وقوعه قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦).

وورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ١٠١ - ١٠٢).

وفي قوله سبحانه: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (الأعلى: ٦ - ٧).

أنواع النسخ:

١- نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وهو الأكثر، كآية الاعتداد بالحول ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ البقرة: ٢٤٠.

نُسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشر.

٢- نسخ التلاوة وبقاء الحكم، كآية الرجم، وآية الرضاع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما نزل من القرآن (عشرُ رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن) فنسخن (بخمس رضعات معلومات) فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يُقرأ من القرآن. رواه مسلم.

٣- نسخ التلاوة والحكم معاً.

فيما يعرف به النسخ:

النسخ لا يعرف بالقياس أو الاجتهاد، وإنما يعرف بالدليل النقلي من الكتاب والسنة، لأن مستند النسخ هو الوحي فقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (يونس: ١٥).

فإذا كان الرسول ﷺ يأمره الله أن يقول للناس ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ﴾ (يونس: ١٥) لأني رسول محض، ومبلغٌ عن الله، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (يونس: ١٥) فإني عبد مأمور، فكيف بغيره من الناس؟!

أمثال القرآن

ضَربَ الله تعالى الأمثال في القرآن، تذكيراً للناس، وعبرةً وعظا، وتقريبا للمعاني، وتوضيحا للمراد من الآيات الكريمة لفهم السامع والقارئ، أو تأكيداً لمعنى المثل والحكمة منه.

كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الزمر: ٢٧) ويقول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

أي: نضرب الأمثال لأجل انتفاع الناس وتعليمهم، لأن تقريب الأمور المعقولة يكون بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المقصود.

وقوله ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ حثٌ على تدبرها، ومدح لمن يعقلها، وأن صاحبها من أهل العلم، لأن فيها العلم النافع، والمسائل الجليلة، وأكثرها في المعتقد وأصول الدين.

وامتن الله عز وجل على الأمم بذلك، فقال ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم: ٤٥)، وقال ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (الفرقان: ٣٩) فبهذا نعلم أهمية الأمثال في القرآن الكريم، لأن الله جل وعلا رفع من شأنها، وجعل عقلانها من علامات العلم والمعرفة.

وهي أيضا: من بديع القرآن الكريم، ومعجزاته الخالدة [1].

١- يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «نزل القرآن على خمسة أوجه: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال». وهو ضعيف جدا، كما في مشكاة المصابيح (١٨٢).

وقد أفرده بعض العلماء بالتأليف، ولشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥٤هـ) شرح مطول لأمثال القرآن، طبع في كتاب مستقل، وهو جزء من كتابه «إعلام الموقعين».

ومن كتب المعاصرين: الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض/ مطبوع.

وأمثال القرآن على نوعين:

١- ظاهر مصرح به، وهو ما جاء مسبوقا بكلمة «مثل» أو «مثلهم» أو «ضرب الله مثلا».

٢- كامن يفهم منه المثل، ويستخرج منه بالفهم، كما قيل للحسن بن الفضل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: خير الأمور أوساطها؟ قال: نعم في أربعة مواضع، قوله تعالى ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (البقرة:٦٨) وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان:٦٧) وقوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (الإسراء:٢٩) وقوله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:١١٠).

نماذج من أمثال القرآن:

فمن الأمثال في سورة البقرة:

قوله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:١٧-٢٠).

وقوله ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة:١٧١) وقوله ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ ﴾ (البقرة:٢٦١).

وقوله ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ (البقرة:٢٦٤)
وقوله ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ (البقرة:٢٦٥).

أقسام القرآن

الأقسام جمع قَسَم، وهو الحلف، والقصد من القسم: تأكيد الخبر والأمر المقسم عليه، وهو من عادة العرب في كلامها، ولهذا ورد في القرآن كثيرا، وإلا فالمؤمن مصدق بكلام الله تعالى وأخباره من غير قسم.

والقسم لا يكون إلا باسم معظم، أو شيء عظيم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه وبصفاته، وبآياته، وأقسم بما شاء من مخلوقاته ومصنوعاته العظيمة، وللخالق وحده دون خَلْقِه أن يقسم بها، لأنها تدل عليه، وعلى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وعلى قدرته وعلمه وحكمته.

وقد يكون القسم بالشيء، لفضله وشرفه ومنفعته، كقسمه ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (التين: ١ - ٣).

وكقسمه سبحانه بعمر النبي محمد ﷺ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢) وما أقسم الله بحياة أحد غيره.

وأما المخلوق، فليس له أن يقسم بغير الله تعالى، لأنه إشراك به، كما قال النبي ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم».

وقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، مَن كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت» رواهما البخاري (٦٦٤٦، ٦٦٤٧) وغيره.

وقال أيضا: «من حَلَف بغير الله فقد أَشرك» رواه أحمد والترمذي.

وقدأقسم الله بنفسه المقدسة في مواضع من كتابه، كقوله ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ ﴾ (يونس: ٥٣)

وقوله ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (التغابن: ٧) وقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (مريم:٦٨) و ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (النساء:٦٥) و ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (المعارج:٤٠).

وأقسم بعظيم مخلوقاته، كقوله تعالى ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ (الصافات:١) وقال ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٥ - ٧٦) وفي سورة الشمس أحد عشر قسماً متتالية، قال ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ ﴾ (الشمس:١ - ٧) وقال ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ (التكوير:١٥) وقال ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ (الانشقاق: ١٦ - ١٧) وغيرها من الآيات.

أنواع القسم:

القسم في القرآن إما ظاهر كما في الآيات السابقة، وإما مضمر تدل عليه اللام - لام القسم - كما في قوله ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٨٦) أو تدل عليه واو القسم، كما في قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) [1].

تمت بحمد الله ونعمته

١- وقد ألف في هذا الباب، الإمام ابن القيم كتابه: أقسام القرآن، وهو مطبوع متداول.

الـــفـــهـــرس

المقدمة	٣
«تمهيد» فضل القرآن الكريم	٤
مَكَانةُ علم التَّفسير والعِناية به	٧
المَقَاصدُ الأَصلية التي جاءَ القرآنُ لتبيانها	١١
آداب وسنن تلاوة القرآن الكريم	١٥
فائدةٌ في شروط الانتفاع بالقرآن	٢٣
ما هو القرآن الكريم ؟	٢٥
ما هي أصول التفسير؟	٢٧
أحسنُ طرق التفسير	٢٩
ضوابط التفسير اللغوي	٤٢
غرائب الألفاظ في القرآن	٤٥
تدوين التفسير	٤٧
التفسير بالمأثور (النَّقلي)	٤٩
شروط التفسير النقلي	٥١
التفسير بالرأي	٥٣
المفسرون بالرأي المذموم	٥٧
المَكيُّ والمدني	٥٩
المُحْكم والمتشابه	٦٧
الناسخ والمنسوخ	٦٩
أمثال القرآن	٧٢
أقسام القرآن	٧٥

إصدارات الأثري نت:

١- شرح كتاب الإيمان من مختصر صحيح مسلم للمنذري.

٢- ما الذي نرجوه من صيامنا.

٣- تحريم المعازف والغناء في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

٤- التيسير في أصول التفسير.

٥- التوجيهات القرآنية والنبوية الطبية للصائمين والصائمات.

٦- شرح كتاب الوضوء والغسل والحيض - من مختصر صحيح مسلم للمنذري (تحت الطبع).

٧- شرح كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري (تحت الطبع).

وغيرها من الإصدارات الجديدة والمفيدة، تصدر تباعا ،،،

نسأل الله عز وجل التوفيق والسداد للخير.

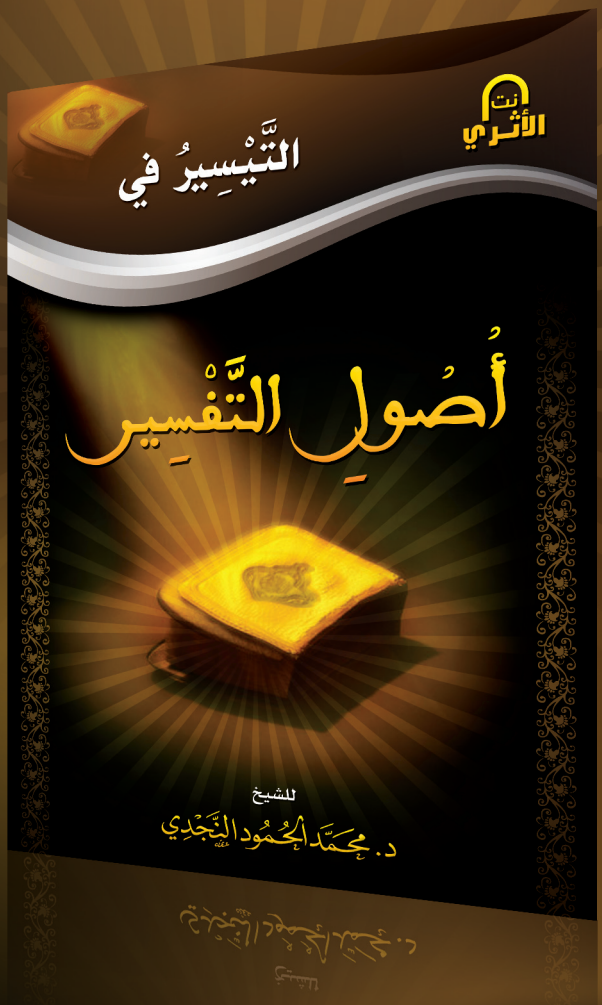

www.al-athary.net
alhomood1@yahoo.com
alnajdi1